Al-Turath Al-Adabbi
ISSN (P): 3005–7426
ISSN (E): 3005–7434
https://alturath.numl.edu.pk
Vol: 03, Issue: 02
(July-Dec 2025)
التراث الأدبي
الجامعة الوطنية للغات الحديثة
Received: Sep 28, 2025| Accepted: Dec 16 2025| Published: Dec 30, 2025
DOI : https://doi.org/10.52015/al-turathal-adabi.v3i2.47

الزوايا والمدارس القرآنية في أقاليم توات ودورها في نشر العلم والمحافظة على المخطوطات

THE CORNERS AND QURANIC SCHOOLS IN THE TAWAT REGIONS AND THEIR ROLE IN SPREADING KNOWLEDGE AND PRESERVING MANUSCRIPTS

الأستاذ الدكتور أحمد جعفري

الجامعة الإفريقية أحمد دراية أدرار – الجزائر

Professor Dr. Ahmed Jaafari

African University Ahmed Draya Adrar – Algeria

Corresponding Author:
adjaafri@univ-adrar.edu.dz

Conflict of Interest:
The author(s) declare that there are no competing or potential conflicts of interest regarding the research, authorship, and publication of this article.

Participant Consent:
Not applicable. This study does not involve human participants.

Funding:
This research did not receive any specific grant from public, commercial, or non-profit funding agencies.

Data Fabrication/ Falsification Statement:
The author(s) declare that no data have been fabricated, falsified, or manipulated in this study.

Copyright:
Copyright (c) 2025 Professor Dr. Ahmed Jaafari

Abstract:

This study presents a historical and analytical examination of the Zāwiyas and Qur'anic schools in the Tuwāt region, highlighting their pivotal role in the dissemination of knowledge and the preservation of manuscripts in southern Algeria. These religious and educational institutions functioned for centuries as foundational pillars of intellectual, spiritual, and cultural life. Adopting a descriptive–historical methodology, the research traces their emergence, development, and social impact, with particular attention to their endowment-based (waqf) systems that sustained free education, accommodation, and nourishment for students, teachers, and travelers. The findings demonstrate that the Zāwiyas of Tuwāt significantly contributed to Qur'anic memorization, jurisprudential studies, Arabic language sciences, and manuscript preservation, while also combating illiteracy and reinforcing Islamic identity during periods of political and social instability. Moreover, their manuscript collections constitute a vital component of Islamic and African intellectual heritage. The

Al-Turath Al-Adabi, Department of Arabic, NUML, Islamabad,
This work is licensed under a Creative Commons Attribution-Non Commercial 4.0 International License (CC BY-NC 4.0).

study concludes by stressing the urgent need for renewed scholarly and institutional efforts to preserve these manuscripts and to revitalize the role of the Zāwiyas as enduring centers of faith, knowledge, and cultural continuity.

Keywords: Zāwiya; Qur'anic Schools; Tuwāt; Knowledge; Waqf (Endowment); Manuscripts; Islamic Heritage.

ملخص المقال:

تعد الزوايا والمدارس القرآنية في أقاليم توات من أبرز وأهم المؤسسات العلمية في نشر العلم والمحافظة على المخطوطات، وذلك بالنظر إلى أدوارها الأساسية التي باتت تؤديها منذ تأسيسها من خلال تخصيصها لجزء كبير من أوقافها للجانب التعليمي من جهة دعما ومؤنة، وبتوفُّرها على كثير من خزائن المخطوطات والكتب التي شكلت رافدا أساسيا يتزود منه الرحالة وعابرو السبيل خلال مسارهم الطويل داخل الصحراء. بما وفرته هذه المؤسسات الخيرية من زاد معرفي وعلمي لزائريها من الرحالة، إضافة إلى المأوى والمطعم وحسن الاستقبال، وهو ما جعل العديد من الرحالة يثنون عليها في رحلاتهم، ويُدَوّنون مقراتها كمحطات أساسية في كتاباتهم. وإذا انتقلنا إلى المضمون العلمي في هذه الزوايا وما انفردت به واجباتها العلمية المقدمة لمريديها، نجد أنها قد تميزت بمنهجها المستقل في التدريس والذي يتخذ من الفارق العمري بين أفراد المجتمع من جهة وبين مضمون المدونات المرجعية من جهة أخرى. مجالا أوحد للتفرقة بين المتعلمين. فالطلبة هنا يتلقون دروسهم وواجباتهم العلمية بحسب كل صنف من الرواد.

وإذا كان مصطلح "الزاوية" أو المدرسة الخيرية قد عرف في عمومه منذ أوائل القرن (٨٠هـ) وكان يطلق على مكان معد للعبادة، كالمسجد، ويشتمل على المرافق للطلبة المجاورين به، وإيوائه للواردين عليه وعابر السبيل[١]، فإنه عند أهل توات يشار به إلى تلك الصدقات الخيرية الجارية التي يحبّسها الشخص في حياته لتبقى بعد وفاته عملا خيريا مستمرا وصدقة جارية نافعة، وهذا من خلال نص موثق ومحدد، يُحَبِّس فيه جملة من الأملاك الخاصة، وقد يكون لها مكان وموقع خاص، ويشرف عليها الشخص المؤسس ذاته في حياته، وبعد وفاته يتعاقب عليها (مقدمون) على التوالي. وتنقسم هذه المؤسسات الوقفية عند أهل توات إلى ثلاثة أنواع: زاويا الضيافة، زوايا العلم، زوايا الضيافة والعلم معاً.

الكلمات المفتاحية: الزوايا، المدارس القرآنية، توات، الأوقاف، المخطوطات، التراث الإسلامي.

مقدمة:

يعتبر الإقليم التوّاتي[٢] على امتداد تاريخه الطويل والزاخر بالأحداث أحد أهم مناطق ومراكز الزوايا والمدارس القرآنية الوقفية الخيرية على مستوى القطر الجزائري عموما، إذ أنه وابتداء من القرن السادس الهجري تاريخ قدوم الشيخ مولاي سليمان بن علي وتأسيسه لأول زاوية وقفية خيرية بالإقليم على الأرجح سنة (٥٨١هـ) توالى تأسيس الزوايا والمدارس الوقفية في هذا الإقليم تباعا، ليصل العدد مع مطلع القرن الخامس عشر الهجري إلى أزيد من مائة زاوية ومدرسة قرآنية كبرى، وبتعداد طلبة هو الأول على مستوى القطر الجزائري بما يفوق الستين (٦٠٠٠٠) ألف طالب، ومئات الشيوخ والأئمة. فكانت بذلك هذه الزوايا والمؤسسات الخيرية أحد أهم وأكبر رافد من روافد العمل الخيري التطوعي والتوعوي داخل المجتمع وطنيا وإقليميا.

لقد كانت هذه المؤسسات ومنذ تأسيسها بداية موطنا أساسيا، ومَعينا صافيا في مَصَبّ الحياة العلمية والثقافية بالمنطقة، حيث إن جل علماء المنطقة مروا في تعليمهم وتعلُّمهم بالزوايا والمدارس القرآنية العامة المنتشرة في كل أقطار الإقليم بما تقدمه مجانا من وجبات ثقافية دسمة ومتنوعة أولا، وبما توفره من مأوى ومطعم لروادها ثانيا، وفي ذلك يقول الشيخ مولاي أحمد الطاهري واصفاً المنطقة وزواياها: "ومن عادتهم إكرام الضيف، والمسافر لا يحتاج إلى حمل الزاد معه، لأن في كل قصر من قصورها عادات، فإذا كان القصر فيه زاوية لها أحباس على إطعام الطعام للأضياف فإن المسافر يقصد دار الزاوية فيجد فيها كل ما يحتاج إليه هو ومن معه، فيجد حتى علف الدّواب... وما أكثر هذه الزوايا في ذلك القطر العزيز المبارك"[٣].

كما أن هذه المؤسسات الخيرية وبتخصيصها لجزء أكبر من أملاكها للجانب التعليمي من جهة، وبتوفرها على كثير من خزائن المخطوطات التي كان العلماء يترددون عليها ليشكلوا حلقة درسهم وتعلمهم من جهة أخرى، قد شكلت منارة حقيقية ووحيدة في الإقليم لكل العلماء العاملين في هذا المجال خاصة، وكذا طلبة العلم والمعرفة عامة. وهو الدور الذي

كان محل إعجاب العام والخاص من علماء المسلمين المترددين على تلك المواطن حيث يقول الشيخ محمد مرتضى الزَّبيدي صاحب القاموس المحيط في وصف الشيخ أحمد بن محمد بن عبد الرحمن أبي نعامة التّواتي صاحب الزاوية العلمية المشهورة في توات: "...منازلهم في أقبلي من عمالة توات، وزاويتهم محترمة، وقد تولى مشيخة ركب الحج كعادة أبيه وجده، وكنت قد سمعت به ووصلت إليّ أخباره وكاتبته، وعقدت معه عقد الأخوة، ثم ورد علينا حاجا في أثناء سنة ١١٩٧هـ فاجتمعت به، وشاهدت من محاسنه ومكارم أخلاقه ما يفوق عن الوصف، وقد عقدت معه عقد الأخوة والمحبة، وسمع مني أشياء، وكتبت له الإجازة، ودعا لنا بخير وعاد لبلاده، ولا تنقطع عني مراسلاته وهداياه بارك الله فيه"(٤)

وهذا الموقف نفسه نجده يتكرر مع الشيخ مولاي أحمد الطاهري العالم المغربي المتجول الذي ساقته الأقدار إلى هذه الديار التواتية سنة ألف وثلاثمائة وستة وخمسين هجرية (١٣٥٦هـ، ١٩٣٧م) على الأرجح، فوجد في قصورها وأوقافها الخيرية ضالته المعرفية والعلمية بما خصصه سكانها من وقف خاص بالعلم والعلماء، وهو ما مكنه سريعا من تأسيس مدرسة علمية خيرية، وظل يشتغل بها حتى وافته المنية وفي ذلك يقول: "ساقتنا الأقدار إلى تلك الديار دون معرفة سابقة بيننا وبينهم وإنما هي من أحسن المصادفات، فوجدنا فيهم أحسن الأهل، ووجدت بها ضالتي المنشودة فاستقام بها لنا المقام وحسن العيش وأرغده في بذل غاية الجد والاجتهاد في التدريس آناء الليل وأطراف النهار، وتعليم أولاد المسلمين من كل الطبقات"(٥).

وإذا كان مصطلح "الزاوية" أو المدرسة الخيرية قد عرف في عمومه منذ أوائل القرن (٨هـ) وكان يطلق على مكان معد للعبادة، كالمسجد، ويشتمل على المرافق للطلبة المجاورين به، وإيوائه للواردين عليه وعابر السبيل(٦)، فإنه عند أهل توات يشار به إلى تلك الصدقات الخيرية الجارية التي يحبّسها الشخص في حياته لتبقى بعد وفاته عملا خيريا مستمرا وصدقة جارية نافعة ، وهذا من خلال نص موثق ومحدد، يُحَبِّس فيه جملة من الأملاك الخاصة، وقد

يكون لها مكان وموقع خاص، ويشرف عليها الشخص المؤسس ذاته في حياته، وبعد وفاته يتعاقب عليها (مقدَّمين) على التوالي. وتنقسم هذه المؤسسات الوقفية عند أهل توات إلى ثلاثة أنواع: زاويا الضيافة، زوايا العلم، زوايا الضيافة والعلم معاً.

وهذه الزوايا والمدارس الوقفية الخيرية جميعا ساهمت كثيراً في توفير المأوى والمطعم وكل ما يحتاجه الزوار إلى هذه الديار، كما كانت أيضا مقرات خاصة يتردد عليها الطلبة والعلماء ليشكلوا حلقة درسهم وتعلمهم، وهو ما يمكن اعتباره جميعاً دعامة خيرية أساسية وموطناً أساسياً من مواطن الدرس العلمي بالمنطقة.

وإلى هذا كله كانت الزوايا بتوات محطة أساسية ورافدا مهما يتزود منه الرحالة وعابرو السبيل خلال مسارهم الطويل داخل الصحراء .بما وفرته هذه المؤسسات الخيرية من زاد معرفي وعلمي لزائريها من الرحالة، إضافة إلى المأوى والمطعم وحسن الاستقبال، وهو ما جعل العديد من الرحالة يثنون عليها في رحلاتهم، ويُدَوّنون مقراتها كمحطات أساسية في كتاباتهم، كما هو حال الشيخ سيدي عبد الرحمن بن عمر التنلاني(١١٨٩هـ)[٧] الذي يقول في مخطوط رحلته في طلب العلم التي انطلق فيها من مقر زاويتهم بتنلان[٨] بعد صلاة جمعة يوم العاشر من شهر جمادي الثانية سنة(١١٨٨هـ)، حيث يقول: "فخرجنا من بلادنا بعد صلاة الجمعة العاشر من جماد الأخير ونزلنا مدينة تمنطيط[٩]،اصفرار يومنا وأقمنا بها يوم السبت، وأسرينا منها وقلنا زاوية الجديد[١٠]ثم أسرينا منها وقلْنا زاوية الرقّاد[١١] وبتنا بها ثم رحلنا منها لقرية بوعْلي[١٢]... وقلنا يوم الجمعة قرية تمقْطن[١٣]، ثم رحلنا منها لزاوية سيدي أبي الأنوار[١٤]، وأقمنا بها ثلاثة أيام، ثم رحلنا منها لأولَف الأشراف[١٥] وبتنا به، ثم لزاوية تقرافَت،[١٦] وبتنا بها... ثم رحلنا لزاوية أبي نعامة[١٧] نفعنا الله به وزرناه، وهو الذي أحيا سنة الحج من بلاد توات والتَّكرور، فأقمنا بها أربعة أيام..."[١٨] وعلى طول خط الرحلة، وفي كل محطة من محطاتها كما رأينا كان يتردد اسم زاوية أو مدرسة وقفية مشهورة بالإقليم توقف فيها المؤلف وأقام فيها ليوم إلى ثلاثة ضيفا كريما معززا على شيوخها وموردیها .

وإذا انتقلنا إلى المضمون العلمي في هذه الزوايا وما انفردت به واجباتها العلمية المقدمة لمريديها، نجد أنها قد تميزت بمنهجها المستقل في التدريس والذي يتخذ من الفارق العمري بين أفراد المجتمع من جهة وبين مضمون المدونات المرجعية من جهة أخرى. مجالا أوحد للتفرقة بين المتعلمين. فالطلبة هنا يتلقون دروسهم وواجباتهم العلمية بحسب كل صنف من الرواد، فنجد أولا صنف المبتدئين، ثم صنف المتوسطين، ثم صنف الخاصة. حيث يبدأ الشيوخ والمعلمون بهذه المؤسسات دروسهم مع طلبتهم في الصنف الأول بقراءة وتحفيظ القرآن ثم التدرج إلى شرح ابن عاشر، ورسالة بن أبي زيد القيرواني في الفقه، وإلى الآجرومية والملحة الحريرية في النحو. أما بالنسبة للمتوسطين من الطلبة فكانوا يقفون معهم في الفقه مثلا على لامية الزقاق ومع الرسالة بتعمق. أما بالنسبة للخاصة والمتفوقين فكان الوقوف معهم في النحو مثلا عند مغني اللبيب لابن هشام وغيرها من الكتب الخاصة والمتخصصة. وقد تخرج من هذه الزوايا والمدارس الوقفية على امتداد فترة اشتغالها منذ القرن السادس الهجري وإلى وقتنا الحاضر آلاف الطلبة والأئمة من الحاملين لكتاب الله والمتفقهين في علومه[١٩] . ولقد اضطلعت في ذلك ومنذ تأسيسها بأدوار خيرية بارزة ومتميزة نابعة من صميم أهداف رسالتها التي تأسست ووُقّفَت من أجلها، ويأتي في طليعة تلك الأدوار والأهداف الخيرية التطوعية تمثيلا لا حصرا:

أولا: في مجال تحفيظ كتاب الله والتحفيز عليه:

فهي لم تكتف بفتح أبوابها أمام طلبة العلم، بل إن بعض شيوخ الزوايا والمدارس التعليمية حددوا في وصاياهم الوقفية الخيرية نصيبا لحفظة القرآن عامة يزيد وينقص بحسب عدد سور القرآن المحفوظة. وهي مبادرة خيرية خلاقة جعلت من طلبة العلم في هذا الإقليم يتنافسون صبية على حفظ كتاب الله، ويتخصصون شيوخا في تفسير آياته، والتأليف في علومه. ونمثل هنا بالشيخ سيدي عبد الرحمن بن عمر التنلاني التواتي (١١٨٩هـ) خريج زاوية تنلان وصاحب المؤلفات العلمية العديدة أهمها مخطوطه ففي شرح كتاب الحلبي المسمى بالدر المصون في علم الكتاب المكنون والكتاب مخطوط فيما يزيد عن أربعمائة صفحة[٢٠] .كما

نجد للشيخ سيدي محمد بن العالم الزجلاوي (١٢١٢هـ) خريج زاوية زاجلوا مؤلفات مختلفة كذلك أشهرها ما ألفه في غريب القرآن[٢١] . أو مثل الشيخ المختار الكبير الكنتي صاحب المؤلفات الغزيرة كتابا أهمها كتابه: فقه الأعيان في حقائق القرآن ويضاف إلى ذلك عشرات المخطوطات في هذا الباب. والأمر هنا لا يقتصر على فئة دون أخرى، بل نجد الولد والبنت والصبي والصبية، كما نجد الرجل والمرأة والعجوز والعجوزة، لكن مع تفاوت في الزمان والمكان وبعض متطلبات كل مقام. وهو ما ساهم كثيرا في مكافحة الأمية بشتى ألوانها وأصنافها.

ثانيا: في مجال تعليم الفقه وسائر العلوم اللغوية والدنيوية:

ولقد اعتمدوا في الفقه أساسا على جملة من مصادر الفقه المالكي[٢٢] المعروفة والمتداولة في أقاليمنا المغاربية على الأشمل، وقد فاقت الثلاثين مصدرا من مصادر التشريع الإسلامي نذكر من ذلك تمثيلا لا حصرا: كتاب الموطأ للإمام مالك، والواضحة لأبي مروان الأندلسي(ت ٢٣٨)، ومدونة الإمام سحنون (ت٢٤٠هـ)، وكتاب ابن المواز الإسكندراني (ت٢٦٩هـ)، والرسالة لأبي زيد القيرواني (ت٣٨٦هـ)، وكتاب الإعلام بنوازل الأحكام للإمام ابن سهل(ت٤٨٦هـ)، ونوازل ابن رشد(ت ٥٢٠هـ)، وكتاب النهاية والتمام في معرفة الوثائق والأحكام للقاضي أبي الحسن علي بن عبد الله الفاسي، وكتاب مجالس المكناسي أو مجالس القضاة والحكام وغيرها من أمهات المصادر التشريعية.

وفي علوم الحديث نجد الاعتماد كليا على كتاب صحيح البخاري، وموطأ الإمام مالك، والبيقونية، وكذا ألفية السيوطي في الحديث وغيرها. أما في علوم اللغة فنجد الاعتماد ظاهرا على ألفية ابن مالك، والأجرومية، وكتاب قطر الندى وبل الصدى، وكذا لامية الأفعال، ومثلث قطرب، وكتاب شذور الذهب في معرفة كلام العرب وغيرها من الكتب المتخصصة.

وفي هذا الباب أيضا لم يكتف سكان الإقليم بالاعتماد على ما وفرته هذه المؤسسات الخيرية من مصادر ومراجع للتدريس، بل تعدوه إلى التأليف والإبداع في هذا المجال، وخلفوا في ذلك عشرات المخطوطات الفقهية واللغوية التي تعج بها وإلى الآن هذه المؤسسات

الوقفية نذكر من ذلك تمثيلا لا حصرا: غنية المقتصد السائل فيما وقع بتوات من القضايا والمسائل. جمع مشترك بين سيدي الحاج محمد بن عبد الرحمن، وابنه سيدي عبد العزيز وسيدي محمد العالم البكري بن سيدي محمد الجزولي. المحفوظ بخزانة تمنطيط أدرار. نوازل الشيخ الزجلاوي المحفوظ بخزانة زاوية زاجلو. ولاية أدرار. نوازل الشيخ الجنتوري المحفوظ بخزانة قصر كوسام. ولاية أدرار وغيرها من كتب الفقه.

وفي علوم اللغة نجد مخطوط غاية الأمل في إعراب الجمل للشيخ البكري المحفوظ بخزانة المدرسة البكرية بتمنطيط. ومخطوط نيل المراد شرح لامية ابن المجراد لمحمد بن أُبَّ المزمري (١١٦٠هـ) المحفوظ بخزانة الزاوية البكرية، وكما نجد العديد من المخطوطات في العروض والبلاغة والصرف وغير ذلك.

وفي مجال التاريخ والتراجم والأنساب كانت الزوايا والمدارس الوقفية شاهدة أيضا على حركة تأليفية خصبة في هذا المجال حيث نذكر من ذلك تمثيلا لا حصرا: مخطوط (القول البسيط في أخبار تمنطيط) لصاحبه محمد الطيب بن عبد الرحيم المشهور باسم (ابن بابا حيدة) المحفوظ بالخزانة البكرية بتمنطيط. ومخطوط "تراجم بعض علماء ومشايخ الشيخ عبد الرحمن بن عمر التنلاني": العالم عبد الرحمن بن عمر التنلاني. المحفوظ بخزانة زاوية تنلان. ولاية أدرار. ومخطوط "جوهرة المعاني في تعريف علماء الألف الثاني": لمحمد بن عبد الكريم البكري. المحفوظ بالخزانة البكرية تمنطيط. ومخطوط درة الأقلام في أخبار المغرب بعد الإسلام": للعالم سيدي محمد بن عبد الكريم البكري. وكذا مخطوط الدرة البهية في الشجرة البكرية، لمؤلفه الشيخ الحاج محمد العالم. وهما مخطوطان محفوظان بخزانة الزاوية البكرية تمنطيط بأدرار. كما نجد أيضا مخطوط نقل الرواة عمن أبدع قصور توات: لصاحبه محمد بن عمر بن محمد الجعفري. خريج الزاوية الجعفرية ببودة بتوات، وهو مخطوط لا يزال محفوظا بهذه الزاوية ومخطوط نسيم النفحات في ذكر أخبار توات للشيخ مولاي أحمد الإدريسي مؤسس المدرسة الطاهرية الوقفية الشهيرة بتوات. وهو مخطوط محفوظ بخزانة هذه الزاوية.

ومن مخطوطات السير والتراجم التي خطت في هذه الزوايا وبأقلام التواتيين أيضا نذكر مخطوط الدرة الفاخرة في ذكر المشايخ التواتية لصاحبه الشيخ سيدي محمد بن عبد القادر بن عمر التنلاني. وهو مخطوط محفوظ بخزانة زاوية كوسام. بتوات. يضاف إلى ذلك أيضا مخطوط لذاذ الأقوات فيمن حل أورحل من أرض توات لصاحبه الشيخ الحاج أحمد النحوي البوحامدي. خريج المدرسة الطاهرية الوقفية بسالي.

وهذه النماذج المذكورة جميعها هي غيض من فيض ونقطة من بحر هائل في هذا المجال ويكفي أن نشير هنا إلى أنه وقبل عملية النهب والضياع التي تعرض لها المخطوط في هذه المؤسسات الوقفية الخيرية، والتي بدأت قبل القرن ١٧ الميلادي كان يوجد بزوايا الإقليم ومدارسه الخيرية أزيد من سبعة وعشرين ألف مخطوط، وهي موزعة على أزيد من مئة زاوية ومدرسة خيرية وقفية خاصة.

ويضاف إلى كل هذا العدد ما هو محفوظ خارج الجزائر في خزائن ومراكز مالي وموريتانيا والمغرب وغانا والسنغال والنيجر ونيجيريا وغير ذلك من الدول الإفريقية والإسلامية التي تأثرت بنهضة الإقليم، حيث يذكر السعدي في كتابه تاريخ السودان " أن قائمة العلماء المشهورين في مساجد وجوامع مدن الغرب الإفريقي ومراكزه الحضارية يشكل التواتيون من بينهم نسبة تقارب النصف"(٢٣). كما يذكر القاضي محمود كعت صاحب "الفتاش" أن كل جامعات الغرب الإفريقي ومساجده كانت خلال القرن الخامس عشر وحتى القرن السابع عشر الميلادي حافلة بالطلبة والعلماء من منطقة توات"(٢٤).

ثالثا: في مجال الدعوة ونشر الإسلام والذود عنه في كثير من بقاع العالم

ونمثل في ذلك بما قامت به الزاوية الكنتية خصوصا في غرب إفريقيا. حيث لم يكتف علماء هذه الزاوية بنشر تعاليم الإسلام داخل أدغال القارة السمراء فحسب، بل وقفوا أيضا سدا منيعا ضد كل المحاولات التّغريبية من قبل الاستعمار ولا أدل على ذلك من شهادة الفرنسيين أنفسهم في الأمر، حيث نجد الباحث والجنرال العسكري الفرنسي "بول مارتي" يعترف صراحة

بدور الزاوية الكنتية خصيصا في مواجهة الاستعمار الفرنسي في بلاد الجزائر وما جاورها من البلدان الإفريقية فيقول: "وقد كانت الضرورة تقتضي إنشاء مركز عسكري في آدرار ايفوغاسن... وفضلا عن ذلك فإن إدارة كنته ذاتها وتحقيق الارتباط مع بلاد الجزائر قد فرض إنشاء هذا المركز المذكور وقد قام المقدم "بتريكس" بذلك في دجنبير (ديسمبر)١٩٠٨"[٢٥]. ويقول هذا القائد الفرنسي في حق الشيخ زين العابدين بن سيدي محمد الكنتي الذي ولد في ضواحي تمبكتو سنة ١٨٤٨م وترعرع في الزاوية الكنتية بمنطقة توات، وعايش الدخول الفرنسي للإقليم تحديدا مع مطلع القرن العشرين. وكان من ألد خصوم فرنسا الإستدمارية. يقول بول مارتي عن هذا الشيخ: "وأصبحنا نحن الفرنسيين نعتبره في عداد أشد أعدائنا الألداء"[٢٦] ويضيف في وصفه أيضا "والذي ظل خلال أكثر من عشرين عاما يسبب لنا المتاعب وينهب الأفخاذ الخاضعة بغزواته التي لا تهدأ"[٢٧] ثم يردف شهادتَه تلك بشهادة أحد القادة الفرنسيين آنذاك العقيد "كلوب" الذي يلخص موقف فرنسا من الرجل فيقول: "الموت وحده الذي ينقذنا من عابدين"[٢٨].

ولقد استمرت مقاومة الرجل للاحتلال الفرنسي أزيد من خمسة وعشرين سنة (١٨٩٠ إلى سنة ١٩١٦) وتنقل خلال هذه المدة بين مناطق الجزائر ومالي وموريتانيا وأخيرا المغرب الذي سقط فيه شهيدا. إبان الحرب العالمية الأخيرة[٢٩] وغير هذا الرجل كان لكثير من علماء الزاوية الكنتية الدورُ نفسُه في المنطقة. وقد غصت كتب التاريخ وغيرها بمثل هذا وغيره. وقد كان الداعم الأساسي لكل تلك العمليات الدعوية والجهادية هو ما وفرته الزوايا والمدارس الوقفية الخيرية من أوقاف وأحباس خيرية خاصة وعامة انتفع بها الزوار قبل المريدين.

شعارهم في كل ذلك قوله جل من قائل ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ[٣٠]﴾.

بهذا كله وغيره كثير أمكن القول إن جميع تلك اللقاءات التي دارت بين شيوخ الزوايا ومجموع الساكنة في إفريقيا الغربية خاصة قد أعطتنا صورة واضحة لما وصلت إليه الحضارة الإسلامية من الازدهار والرقي في تلك المناطق خلال القرنين التاسع والعاشر الهجريين، كما أنها

قد عكست لنا في الوقت نفسه الدور البارز والرائد الذي قام به أولئك الدعاة المتطوعة في سبيل إرساء قواعد الدعوة الإسلامية وإخضاع المعارف الإسلامية في تلك الديار لمحك الأخذ والرد والعطاء وتوسيع دائرة النقاش العلمي[٣١] ومعه توسعت رقعة الإسلام ،وصححت كثير من المفاهيم والأفكار المغلوطة التي ظلت معششة لفترة طويلة جدا من الزمن في أذهان كثير من الأفارقة حكاما ومحكومين على السواء .

رابعا: في مجال مكافحة الأمية والجهل بمختلف ألوانه وأشكاله

وذلك بفتح قاعات خاصة لتعليم الكبار مبادئ القراءة والكتابة. ويكون ذلك في أوقات خاصة وخارج أوقات العمل المعهودة، وقد استفاد من العملية وبالمجان عدد هائل من سكان الإقليم على مر التاريخ.

خامسا: في مجال المساهمة في نسخ المخطوطات وكافات الوثائق التاريخية

لقد غدت المنطقة في ذلك وإلى الآن خزانا حقيقيا للمخطوطات في الجزائر قاطبة بما يزيد عن سبعة وعشرين ألف مخطوط –كما ذكرنا –. ذلك أن المخطوط بصفة عامة وجد في هذه المؤسسات الوقفية الخيرية من زوايا ومدارس خاصة نعم المأوى والمستقر، فيها حُررت معظم مضامينه الفكرية حبرا على الورق، وفيها أيضا أعيد نسخه وتدريسه أحيانا مرات ومرات، وفيها أيضا استقر ووُطّن مئات السنين هربا من الضياع والنسيان. وبهذا كله استطاعت هذه المؤسسة الخيرية ومنذ تأسيسها أن تكون أهم رافد في نهر الحياة الثقافية والاجتماعية للإقليم بالإضافة إلى وقوفها الصامد والمتميز طيلة هذه الفترة أمان في وجه كل الحملات التخريبية والتغريبية ضد مقومات الأمة وعناصر هويتها.

خاتمة:

هذا باختصار بعض أهم الأدوار الأساسية الخيرية التي ساهمت من خلالها هذه المؤسسات الوقفية في احتضان وبعث العمل الخيري التطوعي في مجال نشر العلم والمحافظة على المخطوط على امتداد أكثر من تسعة قرون (٩ ٠ ق) بما وفرته من غطاء مادي ومعنوي طيلة هذه المدة،

وهو الغراس الذي أثمر ويثمر إلى الآن، مما أكسب الأسرة و المجتمع التواتي تماسكا وقوة كانتا ولسنوات طويلة صمام أمان في وجه كثير من الصدمات التاريخية والاجتماعية التي عرفتها الجزائر في تاريخها القديم والحديث معا، وهو ما أعطى للإقليم من ناحية أخرى بعده التاريخي والحضاري بين كبريات العواصم التاريخية قديما وحديثا. وما عشرات الأعلام البارزين الذين تخرجوا من هذه المؤسسات الوقفية، وتركوا لنا تراثا مخطوطا، وآثارا وقفية خيرية مرصوصة هنا وهناك، وما مئات الطلبة والأئمة من حاملي كتاب الله والمتفقهين في علومه الذين عجّت وتعجّ بهم هذه المؤسسات إلى الآن، والذين تجاوز عددهم في آخر إحصاء رسمي لوزارة الشؤون الدينية بالجزائر عدد الستين (٦٠٠٠٠) ألف دارس كما ذكرنا إلاّ خير شاهد على ما فعلته وتفعله هذه المؤسسات العلمية الوقفية الخيرية إلى الآن.

لكن مع كل هذا يظل التحدي قائما مع هذه المؤسسات الوقفية، بل نراه يزداد حدة مع مرور الزمن ومتغيرات العصر وهو ما أصبح يحتم عليها إعادة النظر في كثير من برامجها وأنشطتها التطوعية وكذا في طرق تفعيل واستثمار أوقافها وأملاكها الخيرية تماشيا مع ما يتلاءم وظروف العصر، ومتطلبات الظرف وهو ما يتطلب استغلالا أمثل لتلك الهبات الخيرية والأملاك العينية من عقارات وأراضي زراعية وأشجار ونخيل، وحيوانات، ومحلات تجارية، وغيرها. بما ينمي من ثروات تلك المؤسسات ويحافظ على بقائها. كما ينبغي للمؤسسات الرسمية الفاعلة في الدولة التعاطي مع هذه المؤسسات من باب حمايتها وتشجيع مبادراتها الخيرية بما يساعد في الدفع بها وبأنشطتها الخيرية نحو الأمام. ومن ثم اعتبار هذه المؤسسات الخيرية التطوعية شريكا رسميا وفاعلا مكملا للعمل العلمي الاصلاحي التربوي الذي تقوم به مؤسسات الدولة لا عملا منافيا ومنافسا لها. خدمة للمصلحة المشتركة.

الحواشي والمراجع

(١)ينظر: زوايا العلم والقرآن بالجزائر، محمد نسيب، دار الفكر الجزائر، ص/٣٠.

(٢) تقسم توات إلى ثلاثة أقاليم حيث يقع إقليم تيديكلت جنوب مقر الولاية حالياً وهي من قصر فقارة الزوى بعين صالح حتى رقان، أما إقليم قورارة فهي إلى الشمال من قصر تبلكوزه شمالاً إلى قصر تسابيت جنوباً، وأما توات فهي وسط بينهما. ينظر: تقييد ما اشتمل عليه إقليم توات من الأيالة السعيدة من قصور ووثائق أخرى. ص/٠٢، المطبعة الملكية الرباط، ١٣٨١ هـ، ١٩٦٢م، وسكان تدكيلت القدماء والاتكال على النفس، الحاج التومي سعيدان ص/١٨ وما بعدها. ط٠١/٢٠٠٥، دار هومة الجزائر.

(٣)مخطوط نسيم النفحات، الشيخ مولاي أحمد الطاهري، المخطوط محفوظ بالمدرسة الطاهرية بسالي.

(٤)مخطوط معجم المشايخ مرتضى الزبيدي ص ١٨، وينظر أيضا: المعجم المختص، محمد مرتضى الزبيدي، تحقيق محمد عدنان البخيت وآخرون، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، المملكة العربية السعودية، ط ١، ١٤٣١هـ، ج/١، ص/٧٩

(٥)مخطوط نسيم النفحات.

(٦)ينظر: زوايا العلم والقرآن بالجزائر، محمد نسيب، دار الفكر الجزائر، ص/٣٠.

(٧)هو سيدي عبد الرحمان بن عمر بن محمد بن معروف بن يوسف بن أحمد... ويصل نسبه إلى ثالث الخلفاء الراشدين سيدنا عثمان (رضي الله عنه) ولد في مسقط رأسه بتنلان وتنقل بين عواصم تاريخية كبرى وأخذ بها عن شيوخ أجلاء ترجم لهم في مخطوط خاص، توفي بمصر أثناء عودته من الحج وكان ذلك تحديد في اليوم التاسع والعشرين من صفر سنة(١١٨٩هـ) ودفن بمقبرة الشيخ سيدي عبد الله المنوفي بمنطقة قايَتْبَايْ ضواحي القاهرة، من آثاره: مخطوط مختصر الدر المصون في إعراب الكتاب المبين، مخطوط تراجم شيوخه، مخطوط مختصر النوادر في الفقه، مخطوطات ثلاثة أرخ فيها لرحلاته إلى الحج، أو في طلب العلم، بالإضافة إلى تقيدات فقهية مختلفة وقصائد شعرية عدة، (ينظر ترجمته في: مخطوط تراجم شيوخه، ومخطوط ترجمة وجيزة لبعض علماء توات ص/٢٩ وما بعدها، ومخطوط الدرة الفاخرة في ذكر المشايخ التواتية ص/٠٣.

(٨) من قصور توات، أسس به الشيخ سيدي أحمد بن يوسف زاوية علمية كبيرة سنة١٠٧٨هـ

(٩) تمنطيط كانت عاصمة الإقليم قديما. وهي تقع جنوب الولاية أدرار بنحو عشر كيلومترات تقريبا وبها فرع مشهور من الزاوية البكرية.

(١٠) تعود لمؤسسها الشيخ سيدي المختار بن سيدي محمد بن عومر، وتقع على بعد خمسة وأربعين كم تقريبا من مقر الولاية أدرار، وهي تابعة إداريا لبلدية تامست.

(١١) المقصود هي الزاوية الكنتية التي تعود في تأسيسها إلى الشيخ سيدي أحمد بن مجمد المعروف بالرقاد. وهي على بعد خمسة وسبعين كم تقريبا جنوبا من مقر الولاية أدرار.

(١٢) من قصور بلدية زاوية كنته يعود في تأسيسه إلى أبي علي البرمكي، كان موطنا للشيخ محمد بن عبد الكريم المغيلي في نهاية القرن التاسع وبداية القرن العاشر. وهو مدفون بجوار هذا القصر.

(١٣) من قصور بلدية أولف بإقليم تدكلت جنوب الولاية أدرار بنحو ٢٣٥ كلم تقريبا.

(١٤) من قصور بلدية أولف بإقليم تدكلت جنوب الولاية أدرار بنحو ٢٣٠ كلم تقريبا، والزاوية تحمل اسم مؤسسها الشيخ أبي الانوار

(١٥) من قصور بلدية أولف بإقليم تدكلت جنوب الولاية أدرار بنحو ٢٢٥ كلم تقريبا، وهو قصر يحمل اسم ساكنيه من الاشراف.

(١٦) من قصور بلدية أولف بإقليم تدكلت جنوب الولاية أدرار بنحو ٢٢٠ كلم تقريبا.

(١٧) من قصور بلدية أقبلي بإقليم تدكلت جنوب الولاية أدرار بنحو ٢٨٠ كلم تقريبا.

(١٨) ينظر مخطوط الرحلة، خزانة قصر باعبد الله أدرار

(١٩) وما بعدها ينظر: الشيخ مولاي التهامي. سلسلة النواة في إبراز شخصيات من علماء وصالحي إقليم توات. المطبعة الحديثة للفنون ص/٦٥.

(٢٠) المخطوط محفوظ بزاوية تنلان وعليه نسخ عدة. وقد قام طالب في جامعة الجزائر مؤخرا بتحقيق جزء منه. وقد ذكر المرحوم الشيخ باي بالعالم أن الأستاذ أبو عبد التواب عبد المجيد بن علي رياش من المملكة العربية السعودية يعمل حاليا على تحقيق هذا المخطوط ودراسته، ينظر محمد باي بالعالم، الغصن الداني في ترجمة وحياة الشيخ عبد الرحمن بن عمر التنلاني. دار هومة الجزائر ٢٠٠٤.ص/٨١.

(٢١) المخطوط محفوظ بزاوية زاجلو وعليه نسخ عدة، وقد قام الأستاذ عبد القادر بقادر من الجامعة الإفريقية بأدرار بتحقيقه في إطار رسالة الماجستير دفعة ٢٠٠٨.

(٢٢) ينظر: غنية المقتصد السائل فيما وقع في توات من القضايا والمسائل، أ. محمد الدباغ وآخرون، وحدة بحث الجامعة الإفريقية أدرار، الجزائر ص /١٣ وما بعدها.

(٢٣)ينظر: تاريخ السودان، تحقيق هوداس، مطبعة بردين١٨٩٨م.

(٢٤)ينظر: تاريخ الفتاش في أخبار البلدان والجيوش وأكابر الناس، ص /١٥، تحقيق هوداس ودلافوس، مطبعة بردين، باريس١٩٦٤.

(٢٥)بول مارتي، كنته الشرقيون، تعريب محمد محمود ولد ودادي، مطبعة زيد بن ثابت دمشق، سوريا ص/١٦١.

(٢٦)المرجع نفسه

(٢٧) المرجع نفسه

(٢٨) المرجع نفسه

(٢٩) المرجع نفسه ومحاضرة الأستاذ عقباوي لمين بعنوان: دور الكتنية في نشر الإسلام بغرب إفريقيا.

(٣٠) سورة آل عمران الآية ١٠٤/١٠٥.

(٣١) ينظر الحركة العلمية ص/١٧٠.

References in Roman Script

1. yunzaru: Zawāyā al-ʿIlm wa-al-Qurʾān bi-al-Jazāʾir, Muḥammad Nasīb, Dār al-Fikr al-Jazāʾir, P. 30
2. Tuwāt is divided into three regions: Iqlīm Tīdikilt lies south of today's wilāyah seat (from Qaṣr Faqārat al-Zawwī bi-ʿAyn Ṣāliḥ to Raqān); Iqlīm Gūrārah lies to the north (from Qaṣr Tablakūzah northwards to Qaṣr Tisābīt southwards); and Tuwāt lies between them. See: *Taqyīd mā ishtamala ʿalayhi Iqlīm Tuwāt min al-Ayālah al-Saʿīdah min Quṣūr wa-Wathāʾiq Ukhrā*, p. 02, al-Maṭbaʿah al-Malakiyyah, al-Ribāṭ, 1381 AH / 1962 CE; al-Ḥājj al-Tawmī Saʿīdān, *Sukkān Tīdikilt al-Qudamāʾ wa-l-Ittikāl ʿalā al-Nafs*, p. 18 ff., 1st ed./2005, Dār Hūmah, al-Jazāʾir.
3. Makhṭūṭ *Nasīm al-Nafahāt*, al-Shaykh Mūlāy Aḥmad al-Ṭāhirī; the manuscript is preserved at al-Madrasah al-Ṭāhiriyyah, Sālī.
4. Makhṭūṭ *Muʿjam al-Mashāyikh*, Murtaḍā al-Zabīdī, p. 18; see also: *Al-Muʿjam al-Mukhtaṣṣ*, Muḥammad Murtaḍā al-Zabīdī, ed. Muḥammadīt wa-Ākharūn, Markaz al-Malik Fayṣal li-l-Buḥūth wa-l-Dirāsāt al-Islāmiyyah, KSA, 1st ed., 1431 AH, vol. 1, p. 79.
5. Makhṭūṭ *Nasīm al-Nafahāt*.
6. Muḥammad Nasīb, *Zawāyā al-ʿIlm wa-l-Qurʾān bi-l-Jazāʾir*, Dār al-Fikr, al-Jazāʾir, p. 30.
7. He is Sīdī ʿAbd al-Raḥmān b. ʿUmar b. Muḥammad b. Maʿrūf b. Yūsuf b. Aḥmad… descending from the third Rāshidūn Caliph, our master ʿUthmān (may Allah be pleased with him). Born in Tanlān, he travelled through major capitals, studying under renowned shaykhs whom he biographied in a dedicated manuscript. He died in Miṣr on his return from ḥajj—specifically on the 29th of Ṣafar 1189 AH—and was buried near al-Shaykh Sīdī ʿAbd Allāh al-Munūfī at Qāytbāy, Cairo. Among his works: Makhṭūṭ *Mukhtaṣar al-Durr al-Maṣūn fī Iʿrāb al-Kitāb al-Mubīn*; Makhṭūṭ *Tarājim Shuyūkhihi*; Makhṭūṭ *Mukhtaṣar al-Nawādir fī al-Fiqh*; and three travel manuscripts about his journeys for ḥajj and in pursuit of knowledge, in addition to various fiqh notes and several qaṣāʾid. (See his

biography in: Makhṭūṭ *Tarājim Shuyūkhihi*; Makhṭūṭ *Tarjamah Wajīzah li-Baʿḍ ʿUlamāʾ Tuwāt*, p. 29 ff.; and Makhṭūṭ *Al-Durrat al-Fākhirah fī Dhikr al-Mashāyikh al-Tuwātiyyah*, p. 03.)

8. From the ksour of Tuwāt: a major scholarly zāwiyah was founded there by al-Shaykh Sīdī Aḥmad b. Yūsuf in 1078 AH.
9. Tamantīṭ was the regional capital in the past; it lies about 10 km south of Wilāyat Adrar and hosts a well-known branch of the al-Bakriyyah zāwiyah.
10. It was founded by al-Shaykh Sīdī al-Mukhtār b. Sīdī Muḥammad b. ʿUmar, located about 45 km from the wilāyah seat of Adrar and administratively part of Baladiyyat Tāmast.
11. Refers to the Kuntiyyah zāwiyah, founded by al-Shaykh Sīdī Aḥmad b. Muḥammad known as "al-Raqād," about 75 km south of Wilāyat Adrar.
12. From the ksour of Baladiyyat Zāwiyat Kunta; founded by Abū ʿAlī al-Barmakī; home to al-Shaykh Muḥammad b. ʿAbd al-Karīm al-Maghīlī in the late 9th/early 10th century AH; his tomb lies beside this qaṣr.
13. From the ksour of Baladiyyat Awlaf in Iqlīm Tīdikilt, about 235 km south of Wilāyat Adrar.
14. From the ksour of Baladiyyat Awlaf in Iqlīm Tīdikilt, about 230 km south of Wilāyat Adrar; the zāwiyah bears the name of its founder al-Shaykh Abū al-Anwār.
15. From the ksour of Baladiyyat Awlaf in Iqlīm Tīdikilt, about 225 km south of Wilāyat Adrar; a qaṣr bearing the name of its Ashrāf inhabitants.
16. From the ksour of Baladiyyat Awlaf in Iqlīm Tīdikilt, about 220 km south of Wilāyat Adrar.
17. From the ksour of Baladiyyat Aqbilī in Iqlīm Tīdikilt, about 280 km south of Wilāyat Adrar.
18. See: Makhṭūṭ *Al-Riḥlah*, Khizānat Qaṣr Bā ʿAbd Allāh, Adrar.
19. See: al-Shaykh Mūlāy al-Tahāmī, *Silsilat al-Nawāh fī Ibrāz Shakhṣiyyāt min ʿUlamāʾ wa-Ṣāliḥī Iqlīm Tuwāt*, al-Maṭbaʿah al-Ḥadīthah li-l-Funūn, p. 65.
20. The manuscript is preserved at Zāwiyat Tanlān with multiple copies; a student at the University of Algiers recently edited part of it. The late al-Shaykh Bāy bi-l-ʿĀlam mentioned that Ustādh Abū ʿAbd al-Tawwāb ʿAbd al-Majīd b. ʿAlī Riyāsh (KSA) is currently editing and studying this manuscript. See: Muḥammad Bāy bi-l-ʿĀlam,

Al-Ghuṣn al-Dānī fī Tarjamat wa-Ḥayāt al-Shaykh ʿAbd al-Raḥmān b. ʿUmar al-Tanlānī, Dār Hūmah, al-Jazāʾir, 2004, p. 81.

21. The manuscript is preserved at Zāwiyat Zājlu with multiple copies; edited by Ustādh ʿAbd al-Qādir bi-Qādir (African University, Adrar) as an M.A. thesis, cohort 2008.
22. See: *Ghunyat al-Muqtaṣid al-Sāʾil fīmā Waqaʿa fī Tuwāt min al-Qaḍāyā wa-l-Masāʾil*, A. Muḥammad al-Dabbāgh et al., Research Unit, African University, Adrar (Algeria), p. 13 ff.
23. *Tārīkh al-Sūdān*, ed. Houdas, Imprimerie Bardin, 1898.
24. *Tārīkh al-Fattāsh fī Akhbār al-Buldan wa-l-Juyūsh wa-Akābir al-Nās*, p. 15, ed. Houdas & Delafosse, Imprimerie Bardin, Paris, 1964.
25. Paul Marty, *Kunta al-Sharqiyyūn*, trans. Muḥammad Maḥmūd Wald Waddādī, Maṭbaʿat Zayd b. Thābit, Damascus (Syria), p. 161.
26. Ibid.
27. Ibid.
28. Ibid.
29. Ibid. and lecture by Ustādh ʿUqbāwī Lamīn: “Dawr al-Kuntiyyah fī Nashr al-Islām bi-Gharb Ifrīqiyā.”
30. Āl ʿImrān, 104–105.
31. *Al-Ḥarakah al-ʿIlmiyyah*, p. 170.